

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس 11-13: تفسير الآية: 27-30،
عظمة خلق الله في مخلوقاته.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-7-26

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد
الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما
علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا
ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

الله عز وجل يملك ويتصرف وإليه المصير:

أيها الإخوة المؤمنون؛ مع الدرس الحادي عشر من سورة لقمان.
وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ
هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.. وبينت لكم في الدرس الماضي أن هذه اللام لام الملك، أي أن السماوات
والأرض كلها ملك لله عز وجل، وأن الله عز وجل يملك، ويتصرف، وإليه المصير، وهذا أوسع
أنواع الملكية، ومع أنه مالك، ومع أنه قاهر، ومع أنه لا يُسأل عما يفعل، لكنه غني حميد، أي
غني مستغن عن عبادته، ومع ذلك يعاملهم معاملة يحمدونه عليها دائماً.

عظمة كلام الله تعالى:

الآن في آية أخرى تلو هذه الآية، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ
شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.. كلكم
يعلم أن محبرة واحدة تكفي الطالب سنة أو سنوات عديدة، يُسودُّ بها عشرات، بل مئات، بل
عشرات مئات الصفحات، فربنا عز وجل أراد أن يبين لنا طرفاً من علمه، لو أن كل ما في
الأرض من أشجار، والأرض فيها غابات كثيفة جداً، وفيها غابات عذراء، حتى الآن لم يستطع
الإنسان أن يصل إليها، وأن هناك أشجاراً من حيث الأنواع والأعداد ما لا تحصى، لو أن كل ما

في الأرض من أشجار أصبحت أقلاماً، أي بُرئت أغصانها أقلاماً، وأن البحر، البحر اسم جنس، يعني البحار كلها، وتعلمون أن الأرض القارات الخمس لا تزيد على تسعة وعشرين بالمئة من مجموع مساحة الأرض، وتعلمون أن في البحار أعماقاً كبيرة، هناك في المحيط الهادي واد اسمه وادي مريانة يزيد عمقه عن اثني عشر ألف متر، أربعة أخماس الكرة الأرضية، وهناك أعماق تتراوح بين خمسة آلاف وما يزيد على عشرة آلاف متر، لو أن هذا البحر كله المحيطات والمحاطات، المتوسط محاط، بينما المحيط الهادي محيط، لو أن البحار كلها المحيطات والمحاطات مع سبعة أمثالها كانت مداداً أي حبراً، وكل ما في الأرض من شجر أقلام، وهذه الأقلام كتبت، والبحار كلها جفت، وجاء مثلها بحار، والمثل الثاني جف، وجاء المثل الثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، يقول الله عز وجل: ﴿مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾..الكلمات التي تعبر عن علمه، وأنت ترى أن الإنسان منذ آلاف السنين يدرس، ويبحث، وينقب، ويجرب، ويستتبط، ويكتشف، ويسجل، ويقول لك في النهاية: بعد آلاف السنين لم تبتل بعد أقدامنا ببحر المعرفة.

أسرار أجهزة الإنسان:

قد يعقد مؤتمر لأطباء القلب، يقال لك: إن في هذا المؤتمر سبعة آلاف محاضرة، وكل عدد من المحاضرات في جانب من جوانب القلب، ولا يزال ما نجعله عن القلب أكثر مما نعلمه عنه، وهو القلب، يا ترى عضلاته، طبيعة عضلاته، طبيعة دساماته، طبيعة كهربائه، طبيعة حركته، عجب عجاب، قل مثل هذا في المعدة، والجهاز الهضمي، قل مثل هذا في جهاز التصفية، قل مثل هذا في جهاز العضلات، الإنسان كائن عظيم، إنه أعظم ما في الكون.

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر؟

الإمام علي

* * *

والإمام الشافعي يقول: "كلما ازددتُ علماً ازددتُ علماً بجهلي".

تشعر أمام أنظمة بالغة الدقة، يقولون لك: إن كل ما في الحياة أساسه الخلية، والخلية عبارة عن جدار وسائل ونواة، هذا الجدار ليس كتيماً، وليس مفتوحاً يقبل الرشح من ماء الخلية إلى ماء خلية مجاورة، وأن كل سرّ الخلية في هذه النواة، وأن في النواة نوية، وأن سرّ السرّ في النوية، وأن هناك شريطاً لا يمكن لهذا المجهر الذي بين أيدينا أن يكتشفه إلا بمجاهر إلكترونية، هناك شريط عليه معلومات، قد تزيد معلومات الشريط عن خمسة آلاف مليون معلومة

مبرمجة في أوقات محددة تشكل المخلوق إنساناً أو حيواناً أو نباتاً، الخلية أساس وحدة وظيفية للكائن الحي.

وقد يدرسون في أعوام كثيرة الخلية فقط، ما علم الله عز وجل؟ الآن اكتشف أنه ليس هناك زمر دموية فحسب، بل هناك زمر نسيجية، وتكاد الزمر النسيجية تزيد عن ألفين وخمسمئة مليون زمرة، أي لا يوجد في الأرض إلا زمرتان متشابهتان فقط، بحوث كلما امتد العقل البشري وكلما ازدادت البحوث والكشوف أطلعونا على شيء لا يصدق، كنا نعد النجوم عدداً.

أسرار النجوم:

هناك الآن مرصد ترصد هذه النجوم، هناك مرصد ترصدها لا من أشعتها، بل من أصواتها، ستة عشر مليون سنة ضوئية بين مجرة اكتشف حديثاً وبين الأرض. ماذا أقول؟ ماذا أقول قي الفلك أم في الذرة؟ في المجرة أم في الذرة؟ في النبات أم في الحيوان؟

الطيور آية من آيات الله الدالة على عظمته:

هذا الطائر الذي يطير بجناحين حتى في هذه اللحظة لا يستطيع علماء الطيور أن يعرفوا سر هجرتها، بماذا تهتدي؟ أتهتدي بالضوء؟ حببوا عنها الضوء فسارت وفق المسار الصحيح، أتهتدي بالتضاريس؟ حببوا عنها التضاريس، أتهتدي بالتعلم؟ عزلوها عن أمهاتها، كلما فرضوا فرضية جاءت الوقائع تناقض هذه الفرضية، آخر فرضية لهجرة الطيور أنها تتحرك بإيقاعات خفية من جهة مجهولة، إيقاعات خفية تتحرك من خلالها، هذا الطائر يقطع سبعة عشر ألف كيلو متر، ويصل إلى عشه، أية زاوية يأخذها هو في جنوب أفريقيا، وعشه في دمشق في الصالحية، في أحد أحيائها القديمة، في بيت عربي قديم، في طرف السقف، كيف ينطلق هذا الطير من جنوب إفريقيا متجهاً نحو الشمال، لو أنه حاد عُشر درجة لجا في العراق، لو حاد عشرها نحو اليسار لجا في مصر، لو حاد أقل من ذلك لجا في مدينة تدمر، كيف يصل الطير إلى عشه الدقيق؟ وقبل أن يبدأ الطيران يجدد جناحيه تجديداً كاملاً، وقبل أن يبدأ الطيران يقبل على الطعام إقبالاً عجبياً، ويطير الطائر ستاً وثمانين ساعة من دون توقف، ولا يزال علم الطيور في بداياته.

قرأت مرة مقالة عن الطائرة، في مقدمة المقالة يقول الكاتب: إن أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطائر، زوده الله بعظام مفرغة مراعاة لخفة الوزن، والريشة فيها العجب العجاب، فيها متانة وفيها خفة وزن عجيبة، وفيها إمكان تبديلها باستمرار، وبين الجناحين

توازن يأخذ بالأبواب، ولهذا الطائر خواص، الهواء الذي يستنشقه الطائر أثناء الطيران لا يصل إلى رئتيه فحسب، بل يتغلغل في كل أنحاء جسمه، وحتى أظلاف رجليه، لأن هذه القدرة العجيبة في الحركة تحتاج إلى تبريد، وتبريد المحركات علم قائم بذاته، صنع الله الذي أتقن كل شيء، هذا عن الطائر فماذا عن الأسماك؟

الأسماك:

الأسماكُ زودها الله بخط في قسمها الأعلى تعرف في أي لحظة أين هي من سطح الماء، جهاز ضغط، أنبوب مفرغ من الهواء، وزودها بجهاز توازن تعرف إلى أين جهتها نحو الأعلى أم نحو الأسفل؟ حفرة صغيرة في رأسها، وبعض حبات الرمل، وأعصاب حساسة، فإذا انتقلت حبات الرمل إلى جهة أخرى إذاً هي مقلوبة، تعرف وضعها من هذا الجهاز. الشيء الذي يكشفه العلماء عن مخلوقات الله عز وجل فيه العجب العجاب، لذلك التفكر في الكون أقول لكم كلاماً دقيقاً: أقصر طريق إلى الله عز وجل، وأوسع باب، إذا أردت أن تدخل من أوسع الأبواب، وأن تسلك أسهل الطرق فتأمل مخلوقات الله عز وجل، ابدأ بجسمك.

العين وحدها يمكن للإنسان أن يصل من خلالها إلى الله:

هذه العين يخرج منها عصب فيه تسعمئة ألف عصب، وكل عصب له غلاف كي تكون الصورة نقية، وفي الشبكية مئة وثلاثون مليون عصبية، وفي العين طبقات، وللعين ضغط، وللعين ماء، وللعين عدسة مرنة، لا يتسع المجال للتفصيلات، ولكن العين وحدها يمكن أن تصل من خلالها إلى الله، وأن تعرف علمه، وأن تعرف لطفه، وأن تعرف حكمته، وأن تعرف جماله، وأن تعرف قدرته، وأن تعرف ربوبيته، وأن تعرف ألوهيته.

سعة علم الله تعالى:

فيا أيها الإخوة الأكارم، حينما قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾. أراد الله أن يقرب لنا علمه تقريباً عن طريق بعض الأمثال، إن الكلمات التي تعبر عن علم الله عز وجل تنفذ البحار السبع، تنفذ

بحار الأرض كلها مع سبعة أمثالها، ولا تنفذ كلمات الله المعبرة عن علمه، لذلك هذا هو علم الله، وسوف تأتي بعد قليل الآيات التي توضح لماذا يجب أن نعلم أن الله يعلم؟

تسخير الكون للإنسان تسخير تعريف وتكريم:

على كل الإنسان أعطاه الله فكراً، وسخر له هذا الكون تسخير تعريف، وتسخير تكريم، لا ينبغي أن يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام.
إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12)

سورة محمد

الأنعام تأكل، ولا تفكر، تأكل وكفى، والإنسان الذي يأكل من دون أن يفكر سوف يدفع الثمن باهظاً.

مرة حدثني أخ مزارع قال: ضمنت حقل بطيخ، قطفت منه كل يوم شاحنة على مدار تسعين يوماً، من صمم هذه الفاكهة حتى تتضج بالتدرج؟ القمح ينضج دفعة واحدة، المحاصيل تتضج في وقت واحد، بينما الفواكه تتضج تباعاً، في الأولى رحمة وحكمة، وفي الثانية رحمة وحكمة.

وربنا عز وجل جعل لكل شيء علامة، العنب إذا اسود فاسوداده علامة نضجه، والقمح إذا اصفر اصفراره علامة نضجه، وكل فاكهة، وكل نبات، أو ثمرة جعل الله لها علامة تدل على نضجها، فما العلامة التي تركها الله عز وجل علامة على نضج هذا البطيخ؟ قال لي هذا المزارع: إن بُعِدَ الذَّنْبُ الذي تتعلق به البطيخة خيط على شكل حلزون، فإذا أمسكه صاحب حقل البطيخ، وضغطه، إذا انكسر فالبطيخة قد نضجت، وإذا بقي طرياً فالبطيخة لم تنضج بعد، هذا التصميم من صممه! كون كامل.

قلت اليوم على المنبر: إن في المناطق الجافة نباتات تختزن المياه، يمكن أن تختزن ما يعادل ثلاثة آلاف لتر من الماء، بمجرد أن تقطع بعض فروعها حتى يسيل هذا الماء الصافي العذب، نبات مهمته اختزان المياه، نبات مهمته أن يكون حاداً فاصلاً بينك وبين جارك، اسمها في علم النبات: نباتات حدودية، كلها شوك، خضراء اللون، ولها أزهار، ولكنها شائكة، نباتات صممت من أجل الظل، نباتات صممت من أجل الصناعة، أنواع منوعة من الأخشاب، نوع للنوافذ يتحمل الحر والقر والمطر والشمس، وما إلى ذلك، ونوع للأثاث الداخلي، ونوع طري للمعالجة، نوع مرن ومتين قاعدة للآلات، ونوع، ونوع، حدثني بعض الإخوة الذين يعملون في النجارة أن هناك ما يزيد على مئة نوع من الخشب، ولكل نوع صفاته الخاصة وميزاته

وخصائصه، هذا علم الله، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾.

الشعر الذي في رأسنا، ثلاثمئة ألف شعرة، لكل شعرة وريد وشريان وعصب وعضلة وغدة دهنية وغدد صبغية، وأنت لا تدري.

العين، الأذن، اللسان، النطق، لسان المزمار، هذا الذي يعمل ليلاً نهاراً من دون تعب ولا كلل، وأنت نائم يجتمع اللعاب في فمك يتنبه الدماغ، يعطي الدماغ أمراً إلى لسان المزمار فيغلق طريق الهواء، ويفتح طريق المعدة، فيسقط اللعاب في المريء، ومنه إلى المعدة، وأنت نائم لا تدري.

هذه الأجفان تتحرك حركة دورية عجيبة.

الذي أردته من هذه الأمثلة غير المنتظمة طبعاً، أي هناك أمثلة من خلق الإنسان، من خلق الحيوان، من خلق النبات، من خلق المجرات، من خلق الذرة كله إذا درست، وبحثت، ودققت، وحللت تجد العجب العجاب، لذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ أي حينما كنا من قبل نستخدم الحبر في الكتابة، أي قلم ومحبرة، من يشتري لتر حبر أنا أعتقد أنه يكفيهِ طوال حياته هو وأولاده، أما هنا: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ البحار كلها ضرب سبعة، والأشجار كلها أقلام، وكلها تكتب حتى جفت البحار، جاءت بحار مثلها، جفت ما نفدت كلمات الله، الكلمات الدالة على علمه، والكلمات الدالة على أمره، وأمره يومية، لأن هذا الحوين المنوي والبويضة التي عليها خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة تجد الطفل ينمو، في البداية له أنف غضروفي قاس، بعد قليل يصبح ليناً، في طحاله كمية حديد تكفيه عامين، يوجد تفصيلات دقيقة جداً في خلق الإنسان، في سن كذا ينمو صدر الفتاة، في سن كذا ينمو الشعر للفتى، في سن كذا يتغير صوت حباله الصوتية، معلومات مبرمجة كلها، إذاً: كلمات الله الدالة على علمه، وكلمات الله الدالة على أمره: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾.

الله تعالى عزيز يحتاجه كل شيء في كل شيء:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾..في دروس سابقة تحدثنا عن معنى أنه عزيز، الشيء العزيز الذي يندر وجوده، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، أما إذا وصف الله بأنه عزيز،

الشيء الذي يندر وجوده حتى يصبح واحداً، واحد لا شريك له، وتشتد الحاجة إليه، إذا وصف الله بأنه عزيز أي يحتاجه كل شيء في كل شيء.

الابن يحتاج والده في أشياء كثيرة، ويحتاج من يعمل عنده في أشياء قليلة، ويحتاج صديقاً بعيداً في أشياء نادرة، ولكن الله عز وجل يحتاجه كل شيء في كل شيء. وإذا قلنا عن شيء عزيز يصعب الوصول إليه إذا وصف الله بأنه عزيز فالوصول إليه مستحيل، بمعنى أن تحيط به، تصل إليه ولا تحيط به.

تعلق إرادة الله بالحكمة المطلقة:

إذاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.. وحكمته تقتضي أن ما وقع لو وقع على خلاف ما وقع لكان الله ملوماً، أو لكان نقصاً في الحكمة، كل شيء وقع أرادته الله وكل ما أرادته الله وقع، وإرادته متعلقة بالحكمة، وحكمته متعلقة بالخير المطلق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ واحد لا شريك له، يحتاجه كل شيء في كل شيء، يستحيل أن تحيط به، تصل إليه وصول معرفة، وصول طاعة، وصول إقبال، أما أن تحيط به فهذا مستحيل.

هذا تقريب، أحياناً نقول: لا نهاية، هذه كلمة، لكن لو فكرت في اللانهاية فهو شيء يصعب العقل أن يتصورها، تصور مليوناً، مليون مليون، مليون مليون مليون، تصور إنساناً يقول: مليون مئة سنة، والرقم أكبر، هذا محدود، تصور كيس طحين كل ذرة دقيق مليون سنة، كم مليون سنة هذا الكيس؟ تصور محصول الدقيق في العالم، كل ذرة دقيق مليون سنة مرفوعة إلى قوة (ن)، هذا الرقم مضروب بنفسه مئة مرة، أو مرات غير متناهية، ومع ذلك ليس بإمكانه العقل أن يدرك اللانهاية، وأنت مخلوق لهذا الأبد الطويل، لللانهاية، فإذا اشتغلت في هذه الدنيا اشتغلت بالدنيا عن الآخرة فقد اشتغلت بالخبث عن النقيس، وهذا هو الله في تعريفه الدقيق، الله أن تشتغل بالشيء الخسيس عن الشيء النقيس، أن تعمل لحياة فانية، وأن تدع حياة باقية، أن تعمل للدنيا، وتدع الآخرة، فلذلك من أثر دنياه على آخرته خسرها معاً، ومن أثر آخرته على دنياه ربحها معاً.

ما دام الله بهذا العلم، وتلك القدرة، وهذه الحكمة، قلنا: ما نفذت كلمات الله، الكلمات الدالة على علمه، والكلمات الدالة على أوامره، وأوامر الخلق:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)﴾

سورة النحل

كلمات العلم وكلمات الأمر، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وبعد كل هذا أتعجبون أن يعاد خلقكم مرة ثانية يوم القيامة؟ وبعد كل هذا أتشككون في أن يقف الإنسان بين يدي الله عز وجل ليحاسب عن أعماله كلها، يقول الله عز وجل: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾. وهذا يذكرنا بالحديث القدسي الذي تعرفونه جميعاً: عن أبي ذر الغفاري قال الله تعالى: يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تظالموا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِيكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أُكْسِكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُحْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا صَرِيَّ فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفَجَرَ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ - هنا الشاهد - مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.

صحيح مسلم

ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام، كن فيكون.

أنت إذا توجهت إلى طلب شيء قد تبذل الجهد المضني كي تصل إليه، لو أردت أن تتوجه إلى حلب، تركب السيارة المكيفة المريحة، وتمضي بك ساعات تلو ساعات حتى تصل، يقول بعض العلماء: بمجرد أن تتعلق إرادة الله بشيء يوجد فوراً، هذا معنى كن فيكون، زُلْ فَيَزُولُ، فذلك: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ﴾ هذا مات في البحر، وهذا مات في الجو احترقت به الطائرة، وهذا مات على فراشه، وهذا دفن، وهذا لم يدفن، وهذا تفسخ... إلخ، كل هؤلاء الخلق إذا نفخ في الصور:

وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِّخَ فِيهِ أُخْرَى

فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68)

سورة الزمر

انتهى الأمر.

على كل إنسان أن يعد لكل حركة وسكنة جواباً يوم العرض على الله:

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾.. لأن الأمر كن فيكون، إذاً: يوجد حقيقة،

الحركات والسكنات والنظرات كل شيء تفعله في الدنيا سوف يعرض عليك، وسوف يقال لك:

اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14)

سورة الإسراء

يا إخوان؛ القضية كلها المؤمن يعيش، والكافر يعيش، لكن الفرق الجوهرى بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن يعيش ولا يغيب عنه لحظة أنه سوف يُسأل، وسوف يحاسب، لذلك أنا إذا تكلمت، وأنتم إذا استمعتم، هذا الكلام الذي ألقيه عليكم، وهذا الإصغاء الذي يبدو منكم، هذا التوجيه حجة لي أو عليّ، وحجة لكم أو عليكم، أنا لي حساب، وأنتم لكم حساب، كيف يحاسب من يدعو إلى الله عز وجل؟ يقول له الله عز وجل: هل كنت في مستوى دعوتك؟ أمرت الناس بكذا؟ هل سبقتهم أم توانيت عن ذلك؟ وأنتم لكم حساب المستمع، استمعت إلى الحق هل طبقته؟ إذاً: لا الكلام وحده له قيمة، ولا الاستماع وحده له قيمة، الذي له قيمة أن أطبق أنا وأنتم، كلام يلقى على مسامعكم يُعد حجة عليّ إن لم أطبقه، ويعد حجة عليكم إن لم تستجيبوا له، ويعد حجة لي إن طبقته، وحجة لكم إن طبقتموه، فهنا المشكلة، أي يجب أن تؤمن أنه لا بدّ من وقفة بين يدي الله عز وجل، لماذا فعلت؟ لماذا تركت؟ لماذا قطعت؟ لماذا وصلت؟ لماذا عاديت؟ لماذا سالمت؟ لماذا كنت ليناً في الموقف الذي ينبغي فيه أن تكون شديداً؟ ولماذا كنت قاسياً في الموقف الذي ينبغي أن تكون ليناً؟ لم تكن متصفاً؟ لم تعدل؟ لم تحسن؟ لم تتصح؟ لم تستقم؟ لم تكن وفياً؟ لم تكن مخلصاً؟ فلذلك: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ حتى إن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله: يوم الحشر أيعرف أحدنا أحداً؟ كل إنسان له حساب خاص، أنت تكلمت للناس عن الحق، تعال إلينا: لم قلت كذا ولم تفعله؟ لم زهدت الناس في الدنيا وكننت متعلقاً بها؟ لم أمرت الناس بكذا ولم تأتمر بما أمرتهم؟ لماذا نهيتهم عن هذا ولم تنته عما نهيتهم؟ هذا حساب من يدعو إلى الله عز وجل، من يستمع: ألم يبلغ الموضوع الفلاني؟ الحكم الفلاني؟ الأمر الفلاني؟ النهي الفلاني؟ لم تطبق؟ فليحذر كل منا أن يكون العلم حجة عليه، وليسخّ ليكون العلم حجة له.

التهديد والوعيد في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ:

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.. أي هو سميع بصير، إذا تكلمت سميع، وإذا تحركت

بصير، تكلم بفصاحة ما بعدها فصاحة، وطلاقة ما بعدها طلاقة، واذكر الحجج والأدلة

والبراهين، وتفلسف، وتمنطق، وشقق الكلام، وتفنيقه على الناس، وأظهر أنك من أولياء الله الصالحين، كل هذا لا قيمة له، إن الله سميع لقولك، عليم بحالك، تحرك حركة ظاهرة، يعلم السر وأخفى، هو إذا علمت أن الله يعلم انتهى كل شيء، إذا علمت أن الله يكشفك تماماً.. يكشف كل بواطنك، وحركاتك، وسكناتك، تزهد من الخلق، وتتعلق بالحق، ومن علامة الإيمان أن تدع الخلق جانباً، وأن تتجه إلى الله واحداً، ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾..

قَالَ رَبَّنَا إِنَّنا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّني مَعَكُما أَسْمَعُ
وَأَرى (46)

سورة طه

أنا معكم، أي إذا وصلت إلى مرتبة أن ترى أن الله معك انتهى كل شيء، استقمت على أمره، أخلصت له، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم همماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، عن زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم :
من كانت الدنيا همّه، فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة.

السلسلة الصحيحة : خلاصة حكم المحدث : إسناده جيد رجاله ثقات

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ تحرك، تكلم، تفلسف، بين، سوف تكشف على حقيقتك، وسوف تقف بين يدي الواحد الديان، لأنه سميع بصير، لذلك البطل:

ليس من يقطع طريقاً بطلاً
إنما من يتقي الله البطل

ابن الوردي

* * *

البطل يهيئ جواباً لكل موقف وقفه، إن كنت موظفاً فلك حساب خاص، لماذا عقدت الأمر على فلان؟ لماذا بالغت في مشكلته؟ لماذا جعلته يئس أن ينال الموافقة من أجل أن تبتز ماله؟ أنا أرى كل شيء، أعلم كل شيء، دخلك لا يكفي، أهذه حجة كافية أن تبتز أموال الناس؟ إذا كنت طبيباً لماذا بالغت في خطورة المرض؟ من أجل أن يأتي إليك دائماً؟ إذا كنت محامياً وتعلم علم اليقين أن هذه الدعوة خاسرة لماذا قبلتها؟ وفي نيتك أن تنبئه بعد سنوات عدة أن الدعوة لم تنجح، وأن القاضي لم ينصف، إن كنت طبيباً، إن كنت محامياً، إن كنت مدرساً تعلم أن هذا الطالب لا يمكن أن ينجح، فلماذا تبلغ أباه أن النجاح قريب؟ من أجل أن تستمر في التدريس؟ لا ينجو إنسان من حساب الله عز وجل، لماذا أعطيت فلاناً وحرمت فلاناً؟ لماذا

حابت هذا الولد وأعطيته فوق ما أعطيت إخوته؟ كل حركة وسكنة، وكل موقف وراءه سؤال،
 فلذلك: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ﴾ أي بعثكم كخلقكم، كن فيكون في الخلق وفي البعث، وبعد البعث
 هناك الحساب: ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

آيات الله الدالة على عظمته وعلمه:

مرة ثانية؛ يلفت الله نظرنا إلى بعض آياته، لتكون هذه الآيات دالة على عظمته،
 وعلى علمه، وعلى وعده، ووعيده، يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي
 النَّهَارِ﴾.. معنى يولج أي يدخل ﴿وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي تداخل الظل مع النور لا يكون إلا
 في شكل الكرة، لو أن الأرض مكعبة الظلام يظهر فجأة، والضياء يظهر فجأة، أما هذا التداخل
 اللطيف، التداخل المديد، التداخل الهادئ، قبل أن تغيب الشمس يضعف الضوء، يضعف نور
 الشمس، تصفر، بإمكانك أن تتظر إليها من دون أن تنبهر، بعدئذ تغيب في الأفق، يبقى الجو
 مضيئاً، بعد نصف ساعة يدب الظلام، بعد ساعة وربع تقريباً وهو موعد أذان العشاء يختفي
 النور، ويبقى الظلام، فإذا أذن الفجر ظهرت خيوط الضوء في الأفق الشرقي، تزداد هذه الخيوط
 إلى أن تضيء الأرض قبل أن تشرق الشمس، هذا معنى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.. أي هذا الكون بهذا
 النظام، بهذا الثبات، بهذا التداخل، شمس وأرض وقمر، كل يجري لأجل مسمى، ألا يكفي أن
 هذا تقويم؟ هذه الحسابات حُسبت منذ خمسين عاماً، التقويم الفلاني، بعد خمسين عاماً يظهر
 الفجر الساعة الثالثة والدقيقة والواحدة، هذه الأرض الكبيرة بحركتها حول نفسها، وحول الشمس
 لا تقم ولا تأخر، ما هذا النظام الدقيق؟ ثبات مواعيد الشروق والغروب خلال سنوات طويلة جداً،
 خلال عشرات، بل مئات السنين، بل آلاف السنين، هذه آية كبيرة، أنت مطمئن غداً الفجر يؤذن
 الساعة 3,01، الشمس 4,43، الظهر 11,45، العصر 3,27، المغرب 6,47، هذا لأي سنة؟
 لكل سنة، كل يوم من السادس والعشرين من تموز من كل عام الشمس تغيب في الساعة 6,46،
 ثبات هذا النظام أليس آية من آيات الله الدالة على عظمته؟

من مئة سنة، من مئتي سنة، من ألف سنة، وإلى ألف سنة قادمة، في اليوم السادس
 والعشرين من تموز تغيب الشمس الساعة 6,47، أتظنون أن كل سنة يوجد حسابات؟ لا، مرة
 واحدة فقط، يطبعونها كل سنة، ثبات عجيب، إذا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يولج
 الليل في النهار بلطف، أحياناً يكون الإنسان نائماً يتألق المصباح الشديد فجأة فيحس بالأم في
 عينيه، بانبهار، وأحياناً يكون الضوء شديداً تنقطع الكهرباء فجأة فيقع في حيص بيص، أي لم

يعد يرى بعينه إطلافاً، لكن ربنا عز وجل بلطف تغيب الشمس بلطف شديد، وتشرق بلطف شديد. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أليست هذه آية دالة على عظمة الله عز وجل؟

معجزة الشمس:

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.. العلماء طمأنونا، الحمد لله، قالوا: الشمس تبقى متألفة ومشركة إلى خمسة آلاف مليون عام، اطمئنوا الشمس لن تنطفئ، قالوا: وهي متألفة ومتأججة منذ خمسة آلاف مليون عام أيضاً، أي عشرة آلاف مليون عام هذه الوقود، هذه الشعلة لم تنطفئ؟! لم تخب؟! لم تضعف؟! لم تدبل؟! هل يوجد إنسان عنده جهاز وقود يشتعل من دون وقود باستمرار؟ ما هذا الإعجاز في خلق الشمس؟ ما هذه الدورة المستمرة في نشر الطاقة؟! والحديث عن الشمس طويل.

أحد أسنة اللهب في الشمس يزيد على نصف مليون كيلو متر، في سطحها ستة آلاف درجة، لكن في وسطها عشرون مليون درجة، لو ألقيت الأرض في الشمس لتبخرت بوقت قصير تصير كلها بخاراً.

تتسع الشمس إلى مليون وثلاثمائة ألف أرض، وبين الشمس والأرض مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، ومع ذلك يصاب الإنسان بضربة شمس، ويموت على بعد مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، وإذا جئت بعدسة محرقتها يحرق الورق، كثير من الحالات حدث حريق من الشمس فقط، حريق غابات، حريق صهاريج بترول من أشعة الشمس فقط، نحن على بعد مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، وهي بهذه الحرارة، منذ متى؟ منذ خمسة آلاف مليون عام، وتستمر حسب قول العلماء إلى خمسة آلاف مليون عام قادمة.

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1)

سورة التكويد

مَن أمدها بهذه الطاقة؟ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لا بدّ من أجل تنتهي به حركة الأفلاك.

الله تعالى خبير بكل شيء:

﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.. أي خبير بالعمل، إنسان يرى العمل، أما إنسان خبير به، قد تقدم مقالة إلى إنسان فيقرؤها فيعجب بها، لكن هذا الذي قرأها ليس خبيراً بها، قد

يُعجب بها، وفيها أخطاء كثيرة، أما إذا عرضتها على خبير فإنه يكشف لك آلاف الأخطاء، إذا عرضت آلة على إنسان غير خبير يقول لك: والله شيء جميل، ما شاء الله! رائع، أما إذا عرضتها على خبير فينظر إليها يقول: هنا يوجد غلط، هنا يوجد غلط، فالبطولة أن يكون عمك مرضياً عند الخبير لا عند الجاهل، فربنا عز وجل يقول: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعرف العمل، يعرف حجمه، يعرف دوافعه، يعرف غاياته، يعرف ملاساته، يعرف تضحياته، كم التضحية؟ الدافع، الأهداف، كل شيء حول العمل يعرفه الله معرفة تامة، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وجود الله حقيقة ثابتة:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾.. هذه الآية دقيقة جداً يا إخوان، يوجد بهذا الكون حقيقة واحدة هي الله، كل شيء يوصلك إليها، ويزيدك معرفة بها فهو الحق، وكل شيء يزيدك بعداً عنها هو الباطل، فالحق مقرب، والباطل مُبعد، والأصل أن الحقيقة الأولى والأخيرة ولا حقيقة سواها أن الله موجود، وأنه واحد، وأنه كامل، وأنت مخلوق خلقت ليسعدك إلى الأبد، تسعد بمعرفته وبطاعته وبخدمة خلقه، لذلك هذه حقائق مكتفة جداً.

الحق هو الشيء الثابت والباطل هو الشيء الزائل:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾.. معنى الحق الشيء الثابت، معنى الباطل الشيء الزائل، نظرية تنتشر في العالم سبعين عاماً، تتبناها أمم وشعوب، وبعد ذلك تنهار.. وتتهاوى.. تتساقط، وكأنها بناء هش، لأنها باطل، الباطل مصيره الزهوق.

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81)

سورة الإسراء

الحق ثابت، مهما هبت على الدين عواصف عاتية هو شامخ كالجبل، لأنه حق، هو الشيء الثابت، كل النظم الوضعية لم تحقق أهدافها، بل ربما أدت بالإنسان إلى عكس الأهداف التي رسمت لها، باطل، أما نظام الله عز وجل.. كتاب الله عز وجل.. دين الله عز وجل فهو ثابت وشامخ، لأنه حق.

إذاً: معنى الحق: الشيء الثابت، ومعنى الباطل: الشيء الزائل، أي هناك شيء يبني ليهدم، لكن هناك شيء يبني ليبقى، فأنت إذا كنت مع الحق كنت مع الله.

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63)

سورة يونس

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾.. الله هو الحق، وكتابه حق، ودينه حق، وشرعه حق، وأمره حق، ونهيه حق، ووعده حق، ووعيده حق، والجنة حق، والنار حق، معنى حق ثابت، وسوف يقع، إذا أنت اعتنقت فكرة باطلة مهما بالغت بها.. مهما قويتها.. مهما فلسفتها.. مهما نمقتها.. مهما دعمتها.. مهما أغريت الناس بها فهي باطلة، لا بدّ من أن تسقط، أما إذا اعتنقت الحق فالحق وحده باقٍ، لذلك كن مع الحق، إذا كنت مع الحق فأنت الموفق.. وأنت الفالح.. وأنت الناجح.. وأنت الفائز.. وأنت السعيد.. وأنت المتفوق، القضية خطيرة جداً، لو فرضنا إنساناً بنى بناء حقاً وبناء باطلاً، البناء الحق أساسه ثابت.. مبني وفق أصول صحيحة.. مواده الأوليّة جيدة.. تسليحه جيد.. أرضه صلبة.. إقامته ناجحة.. خبراء كبار أنشؤوه.. مواد أولية بذلت بسخاء، بناء آخر باطل.. أساسه فيه ضعف.. مواده الأوليّة مغشوشة.. الحديد أقل من نسبه الحقيقية، فأنت إذا أقمت في البناء الباطل لا بدّ من أن ينهار، أما إذا أقمت في البناء الحق فهو ثابت ثبات الأيام.

من لم يكن على الحق فهو يقيناً على الباطل:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾.. أي إذا لم تكن على الحق فاعلم علم اليقين أنك على الباطل، إن لم تطبق أمر الله في هذا الموضوع فأنت في الباطل، لأنه لا يوجد حقان، يوجد حق واحد، وما سوى الحق باطل، فالقضية خطيرة، إن لم تقف في هذا الموقف وفق ما أمر الله فأنت تقف موقفاً باطلاً، والباطل زائل، معنى زائل أي أن ثماره كلها زائلة، تزول الثمار ويبقى الحساب، أما الحق فيبقى وتبقى آثاره بعد الموت، الباطل تزول ثماره إن كانت له ثمار، وتبقى تبعاته، أما الحق فتثبت ثماره في الدنيا وفي الآخرة.

من معاني أن الله هو الحق:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾.. ومن معاني الله هو الحق أنه لا بدّ من أن يظهر الحق، مهما امتدّ الباطل، ومهما اتسعت رقعته، ومهما اشتط، ومهما علا، ومهما تجبر، لا بدّ من أن يظهر الله الحق، ولا بدّ من أن يؤيده، وهذه سنة ثابتة من سنن الله عز وجل، هو الحق، ولا بدّ من إظهار الحق، فأنت اجهد بأن تكون مع الحق، لأنك إن كنت مع الحق سعدت في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ .. تقول: الله أكبر، معنى الله أكبر، أي إذا جاءك ضغط من إنسان تراه قوياً فالله أكبر، إذا جاءك إغراء من جهة معينة، قل: الله أكبر، أي ما وعدني الله به في الجنة أكبر من كل هذه اللذائذ، والإنسان بين ضغط وإغراء، امتحان الله عز وجل أساسه إما أن يغريك، وإما أن يضغط عليك، فأنت بين جاذب وبين دافع، فإذا جَهدتْ ألا تستجيب لأي إغراء باطل، وألا تستجيب لأي ضغط باطل، كنت مع الحق، يتجلى الله سبحانه وتعالى على قلبك، ويحميك، ويوفقك، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

لكن هناك معنى آخر، إذا قلت: الله أكبر، معنى الله أكبر أنه أكبر مما عرفت، فمهما عرفت عن جلال الله، وعن عظمته، عن قدرته، وعن علمه فهو أكبر.

والحمد لله رب العالمين